



العدد : ٥٤
التاريخ : ٢٠٢٦ / ٥ / ١٠

إلى / أ.د. ياسر علي عبد سلمان المحترم
جامعة القادسية / كلية الآداب
الباحث حيدر عدنان كريم المحترم
جامعة القادسية / كلية الآداب

م / قبول نشر

تحية طيبة

يسر هيئة تحرير مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية أن تعلمكم بقبول نشر بحثكم الموسوم
بـ (الزمن بين شعراء الغزل العذري وشعراء الغزل الصريح (الأطلال نمونجا))، وسيتم نشره في الأعداد
القادمة، مع التقدير.

أ.د. سرحان جفات سلمان
رئيس التحرير
٢٠٢٦ / ٥ / ١٠

أ.م.د. عصام عدنان الياسري
مدير التحرير
٢٠٢٦ / ٥ / ١٠



نسخة منه إلى:

- أمانة التحرير .
- الصادرة .
- وحدة الرقابة .

الزمن بين شعراء الغزل العذري وشعراء الغزل الصريح (الأطلال نموذجاً)

الطالب

حيدر عدنان كريم

جامعة القادسية – كلية الآداب

أ.د. ياسر علي الخالدي

جامعة القادسية – كلية الآداب

art.doc.arb24-6@qu.edu.iq

yasser.abed@qu.edu.iq

الملخص:

لا شك في أن العلاقة بين المكان والزمان علاقة لا يمكن إنكارها أو التغافل عنها ، إذ لا وجود لمكان دون أن يكون مرتبطاً بزمانه. ومن هنا، فإن الإحساس بتأثير المكان لا يتحقق إلا من خلال الإحساس بتأثير الزمان. وعلى الرغم من اختلافهما أو تقاطعهما ، فإن المكان والزمان يتكاملان مع بقية العناصر الأخرى لتشكيل بنية النص الأدبي ، التي تعكس رؤية الشاعر لعالمه وتجربته الوجودية، وهذا النص يخلق عن طريق الكلمات مكاناً خيالياً له مقوماته الخاصة، وأبعاده المميزة فيصعب على الناقد أن يفصل بين المكان والزمان عند قراءة أي عمل أدبي، وذلك لأن تداخلهما في بنية العمل يُعدّ تداخلاً عضوياً يُسهم في تشكيل الموقف الفني داخله. فالعلاقة بين الزمان والمكان تتجاوز التصورات الفلسفية ، إذ بيدوان متلاحمين إلى حد كبير. ولهذا السبب، كثيراً ما يلجأ الشعراء إلى استعمال الفاظ زمنية للتعبير عن أبعاد مكانية، مما يخلق في التجربة الفنية موقفاً يتشكل وفقاً لطبيعة التفاعل بين الزمان والمكان ، وتداخل هذين البعدين مع باقي عناصر العمل الأدبي، كالمضمون، واللغة ، والموقف ، وسواهما . ومن هذا المنطلق، يتضح أن الزمن يشكل المسار الذي تتحرك عليه الأحداث، بينما يشكل المكان الإطار الذي يظهر فيه هذا المسار ، فيرافقه ويحتويه ضمن حدوده . ونظراً للعلاقة الوثيقة الى تجمع بين الزمان والمكان ، ثم استعارة مصطلح الزمان من العلوم الطبيعية وتوظيفه في المجال الأدبي. وقد شكل مفهوم الزمكانية (الزمان /المكان) نقطة تحول في فهم المكان، إذ أدى هذا التطور الى صعوبة الفصل بين الزمان والمكان في بنية العمل الفني، إذ يتداخلان بصورة عضوية تشكل جوهر التجربة الإبداعية.

Abstract :

There is no doubt that the relationship between space and time is undeniable and cannot be overlooked, as no space exists without its connection to time. Therefore, the perception of the influence of space is only realized through the perception of the influence of time. Despite their differences and overlaps, space and time complement each other with other elements to form the structure of the literary text, which reflects the poet's vision of their world and their existential experience. This text creates, through words, an imaginary space with its own specific characteristics and distinctive dimensions. It becomes difficult for the critic to separate space and time when reading any literary work, because their intertwining within the work's structure is an organic interplay that contributes to shaping the artistic stance within it. The relationship between time and space transcends philosophical conceptions, as they appear remarkably intertwined. For this reason, poets often resort to using temporal terms to express spatial dimensions, creating in the artistic experience a situation shaped by the nature of the interaction between time and space, and the interplay of these two dimensions with other elements of the literary work, such as content, language, situation, and

so on. From this perspective, it becomes clear that time constitutes the path along which events unfold, while space forms the framework within which this path appears, accompanying and containing it within its boundaries. Given the close relationship between time and space, the term "spacetime" was borrowed from the natural sciences and employed in the literary field. The concept of spacetime (time/space) marked a turning point in the understanding of space, as this development led to the difficulty of separating time and space in the structure of the artwork, since they intertwine organically, forming the essence of the creative experience.

ونستطيع القول إن الإنسان قادر على الإدراك الحسي للمكان لأن المكان هو المساحة التي تقع فيها الأحداث ، فالمكان فكرة حسية، يستطيع الإنسان ان يعاينه، ويتثبت منه، خلافاً لإدراك الزمان الذي يدركه ادراكاً غير مباشر من خلال فعله في الأشياء ، فإدراك الزمان يرتبط بالإدراك النفسي ويختلف من شخص إلى آخر، ولا يستطيع الإنسان ان يلمسه ويراه ، أما الشاعر فإن إدراكه للمكان يختلف جذرياً عن إدراك الإنسان العادي، فإحساسه المرهف وروحه المتوقدة وعاطفته المتأججة تجعله يرتبط بالمكان ارتباطاً خاصاً ، ينبع من دوافع قد يغفل عنها الآخرون ولا يدركون عمقها كما يدركها الشاعر .

ولهذا فإن علاقته بالمكان علاقة جوهرية، وارتباطه به أمر حتمي فرضته عليه ظروف الحياة القاسية وصراعه المستمر مع واقعها المادي . وقد نتج عن هذا الصراع استجابة داخلية عميقة، يتجاذب فيها وعي الذات الموجوع من الفراغ الروحي، والرغبة في الطمأنينة، مع امتداد الكون في الواقع الخارجي، ذلك الاحتواء الذي منح الإنسان حرية الانفراد والعزلة ، فغدا التعلق بالمكان بالنسبة الى الشاعر أمراً لا مفر منه .⁽¹⁾

فاحتل المكان مكانة بارزة في شعر الغزل ، إذ ارتبط ارتباطاً وثيقاً بوجودان الشعراء وذكرياتهم . فالمكان يمثل لهم موطن الطفولة والصبا، وفيه نشأوا واكلوا من خيراته، وهو ايضاً موضع اللقاء بالمحبة ومسرح الذكريات الجميلة . وقد تجلّى هذا الحضور المكاني في اشعار الغزل في العصر الأموي، إذ انقسم شعراء الغزل الى صنفين : الصنف الأول، وهم شعراء الغزل العذري الذين أولوا المكان أهمية كبيرة ، فحين يقفون على ديار المحبوبة فيفيضون بمشاعر الحزن والأسى ، ويظهرون عمق الصلة التي تربطهم بتلك الديار ، إذ إن ارتباطهم بالمكان نابع من ارتباطهم العاطفي بالمرأة.

أما الصنف الثاني، وهم شعراء الغزل الصريح، فلم يكن للمكان لديهم القيمة العاطفية ذاتها ، إذا لا يمثل موطن الحبيبة بقدر ما يمثل موضعاً للقاء وتبادل المتعة، فالأماكن لديهم كثيرة ، وقيمتها مستمدة فقط من كونها شهدت لحظات الوصل والهوى، لا من ارتباط وجداني عميق بها.⁽²⁾

لم يكن المكان عند شعراء الغزل العذري مجرد إطار خارجي للتجربة ، بل كان جزءاً لا يتجزأ من كيانه وعمقها . فهو الوعاء الذي يحتوي توتر المشاعر وتفاصيل الأحداث ، ليغدو رمزاً ثقافياً ينبض بالحياة يستحضره الشاعر ليسترجع من خلاله ما اختزنه ذاكرته من لحظات ومواقف، فالعلاقة بين الشاعر والمكان علاقة وجدانية تقوم على الذكرى والتأمل، وحين يحس الشاعر بانفصال عنه، يبدأ بمناجاته والتوسل إليه، إذ لا يمكنه ببساطة أن يهجر مكاناً ارتبط فيه بأحاسيس وتجارب لا تقدر بثمن .⁽³⁾ فهذا قيس بن ذريح مخاطباً ربع لبنى، سائلاً إياها عنها وذلك بعدما طلقها ، إذ يقول:(الوافر)⁽⁴⁾

أَلَا يَا رَبَّعَ لُبْنَى مَا تَقُولُ أَبْنِ لِي الْيَوْمَ مَا فَعَلَ الْخُلُولُ

فَلَوْ أَنَّ الدِّيَارَ تُجِيبُ صَبَّأً لَرَدَّ جَوَابِي الرَّبَّعُ الْمُحِيلُ

فالشاعر بندائه للربيع ينم عن علاقة قوية تربطه بالمكان، إذ يضيف عليه بعداً إنسانياً من خلال النداء، لارتباطه العاطفي بالمحبة التي أقامت فيه ، فحين يقول ((يا ربيع لبنى))، فإنه لا يخاطب حجارة أو أطلالاً فحسب، بل يستدعي ذاكرة المحبة ومقامها . ويحاول الشاعر من خلال وقوفه أمام هذا الربيع في لحظته الحاضرة ان يستنطقه ، سائلاً اياه عن أثر المحبة التي مرت أو أقامت فيه في الزمن الماضي، وهذا يعكس صراعه مع الزمن الماضي والحاضر، من خلال ارادة الشاعر القصيدة في مساءلة المكان عن الزمن الماضي العاطفي الذي احتضنه ، لكن هذا المكان في نظر الشاعر ليس ثابتاً ، بل يتبدل بتبدل حركة المحبة فيه، فإن كانت حاضرة أشرق المكان بالحياة والجمال ، وإن غابت خيم عليه الصمت والوحشة، وهكذا يتحول (الربيع) الذي كان رمزاً للبهجة والتجدد – الى ديار صامتة ، لا ترد على نداء العاشق، في دلالة سلبية عن الغياب والموت.

ويستشعر قيس بن ذريح حضور حبيبته في ذلك الربيع الذي ألف لقاءها فيه، فيعجز عن نسيانها أو انفكاك من ذكرها، يقول: (الكامل) (5)

كَيْفَ السُّلُوْ وَلَا أَزَالُ أَرَى لَهَا رَبْعاً كَحَاشِيَةِ الْيَمَانِي الْمَخْلُقِ

رَبْعاً لَوَاضِعَةً الْجَبِينِ غَرِيْرَةً كَالشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ رَخِيمَ الْمَنْطِقِ

قَدْ كُنْتُ أَعْهَدُهَا بِهِ فِي عِزَّةٍ وَالْعَيْشُ صَافٍ وَالْعِدَى لَمْ تَنْطُقِ

حَتَّى إِذَا نَطَقُوا وَأَذَنَ فِيهِمْ دَاعِي الشَّتَاتِ بِرَحْلَةٍ وَتَفَرَّقِ

خَلَّتِ الدِّيَارُ فَرْزَتَهَا وَكَأَنِّي ذُو حَيَّةٍ مِنْ سَمِّهَا لَمْ يَعْزَقِ

فالشاعر يبين لنا كيف كانت العلاقة بين المكان والمحبة عضوية وشعورية ، فالمكان لم يكن مجرد موضع جغرافي، بل حاضناً للحب وذاكرة للعاطفة، فالشاعر لا يستطع النسيان لان المكان (الربيع - أي منزل الحبيبة) ما زال أمام عينيه، فيصبح المكان رمزاً للحب القديم والذكريات الجميلة المرتبطة بها ، فقد جدد الشاعر التناقض بين الزمن الماضي والحاضر من خلال صورة المكان المتحول، ليكشف عن حزنه العميق وارتباطه العاطفي بالمكان الذي أصبح رمزاً للفقد والزوال بعد أن كان مهداً للحب والبهجة ، فتحول المكان من مأهول إلى خالٍ، ومن دافئ إلى موحد ، يتمثل في ذاته انعكاساً لتحطيم العلاقة العاطفية، وتغير الزمن من سعادة في الماضي إلى ألم في الحاضر .

وإذا كان الشاعر في الجاهلية قد وقف على الأطلال ، مستحضراً ذكريات أصحابه، فبكى وأبكى ، وعاش في رحاب الماضي، فإن الشاعر العذري سار على خطى أسلافه ، فوقف على الأطلال هو الآخر، يستدعي زمناً مضى وحنيناً لا يخبو (6)، وها هو كثير عزة يقف عند ديار محبوبته، فتأخذه الذكرى إلى أيام السعادة والهناء بقربها ، مسترجعاً الزمن الماضي زمن العيش الرغيد الذي جمعه بها ، يقول: (الطويل) (7)

خَلِيلِيَّ عَوْجاً مِنْكُمْ سَاعَةً مَعِي عَلَى الرَّبْعِ نَقْضُ حَاجَةً وَنُودَعُ
وَلَا تَعْجَلَانِي أَنْ أُلِمَّ بِدِمْنَةٍ لِعِزَّةٍ لَاحَتْ لِي بِبِيدَاءٍ بَلَقَعِ
وَقَوْلَا لِقَلْبٍ قَدْ سَلَا رَاجِعِ الْهَوَى وَلِلْعَيْنِ أَذْرِي مِنْ دُمُوعِكَ أَوْ دَعِي
فَلَا عَيْشَ إِلَّا مِثْلُ عَيْشِ مَضَى لَنَا مَصِيفاً أَقْمَنَا فِيهِ مِنْ بَعِ مَرَبَعِ

فالشاعر في هذه الأبيات يصارع الزمن الحاضر بمحاولة استحضر الزمن الماضي عبر الأماكن التي مازالت تحتفظ ببقايا الذكرى . فالمكان في هذه الأبيات ليس مجرد مشهد ، بل هو جسر يربط بين زمنين، الزمن الماضي حيث كانت السعادة والوصال، والزمن الحاضر حيث الخلوة والفراغ والخراب والدموع، وفي هذا الصراع، يختار الشاعر التوقف عند الأطلال (الربع ، الدمنة، البيداء)، لأنها مخازن للزمن الماضي، الزمن الذي كان فيه الحب والعشرة ، لا ليعيش الواقع بل ليعيد إحياء زمن جميل مضى، مؤكداً أن المكان ما زال حياً لأن فيه روح الزمن الماضي، فالشاعر يربط المكان بالزمان بطريقة وجدانية، فالمكان هو الموضع الذي حدثت فيه الذكرى العاطفية، والزمان هو الماضي الذي كان فيه الحب حاضراً ، فكل مكان يستدعي زمنه، وكل ذكرى زمانية ترتبط بمكان معين، فلا وجود لأحدهما في وجدانه بدون الآخر، فزمن الشاعر الوجداني مرتبط بمكانه العاطفي .

ويواصل كثير عزة وقوفه عند الأطلال، تغمره حالة من الذهول والريبة ، متأملاً ما حل بتلك الديار بعد رحيل ساكنيها وغياب أنفاسهم عنها ، إذ يقول (الطويل) (8)

وَقَفْتُ عَلَيْهِ نَاقَتِي فَتَنَّا عَزَتْ شُعُوبُ الْهَوَى لَمَّا عَرَفْتُ الْمَغَانِيَا
فَمَا أَعْرِفُ الْآيَاتِ إِلَّا تَوَهُمَا وَمَا أَعْرِفُ الْأَطْلَالَ إِلَّا تَمَارِيَا
وَمَا خَلَفَ مِنْكُمْ بِأَطْلَالٍ دِمْنَةٍ تَنَكَّرْنَ وَاسْتَبَدَّلْنَ مِنْكِ السَّوَافِيَا
وَإِنْ طُنَّتِ الْأُذُنَانِ قُلْتُ ذَكَرْتَنِي وَإِنْ خَلَجَتْ عَيْنِي رَجَوْتُ التَّلَاقِيَا

فالشاعر يوظف المكان كأثر مادي للذكرى، والزمان كعامل يمحو أو يشوش هذه الذكرى، بينما تبقى الحبيبة حاضرة بقوة في وجدانه، تتجلى له في الأصوات والخيالات ويظل في حالة من (حالات اللاوعي ليرضي بها رغبات وحاجات لم يستطع إرضاءها في عالم الواقع) (9)، فهو يقف على المكان القديم لكنه لا يجد اليقين بل يتلمس حضورها بين الوهم والرجاء، ما يجعل التجربة كلها وجدانية نفسية تمزج بين الزمن الماضي والزمن الحاضر والغياب والاحتمال .

أما عمر بن أبي ربيعة فإنه ابتعد عن المقدمة الطللية التي ألقتها قصائد الشعراء في العصر الجاهلي والاسلامي من وقوف على الأطلال والبكاء واستبكاء رفيق الرحلة ، وأن مر عليها مرور العابرين بصفتها لازمة ألقتها الثقافة العربية في بناء القصيدة العربية (10) ، لانه عاش في وسط مجتمعه المتحضر المشرف اللاهي وما يتردد فيه من غناء وبدع الحب ، فانعكس كل ذلك في شعره ، فكشفت عن حيوية الحياة التي عاشها ، وعن تعدد الأمكنة التي ظهرت في شعره ، لتنتقلاته وراء النساء في أرجاء الشام والحجاز ، وعن

تعدد الأزمنة التي شهدتها مغامراته العاطفية تلك ، فقد كان للحب عند عمر بن أبي ربيعة موسم دائم (11)، فلم يكن وقوف عمر بن أبي ربيعة على الاطلال مجرد تقليد فني للمطالع الجاهلية، بل كان تعبيراً رمزياً يتوافق مع طبيعة تجربته العاطفية، ويعكس ما تنطوي عليه من أبعاد نفسية وإيماءات سياسية (12)، فيتخذ من (الاطلال: (مفتاحاً) للحالة النفسية الغالبة على القصيدة، فالشاعر لا يلج على وصف الأطلال، ولا يجهد نفسه ليبتكر في وصفها صوراً جديدة، ولكنه يربطها ربطاً سريعاً بالمرأة، ولا يلبث بعد بيتين أو ثلاثة ان يتركها لينتقل الى حديث عاطفي محوره ذكريات من الماضي يختلط فيها الحب الصادق ، بمشاهد من سمر الشاعر ومتعته بصحبة جميلة) . (13)

((وكان الأطلال المادية ليست إلا مدخلاً للحديث عن طلل نفسي تقوم المرأة الهاجرة أو النائية فيه مقام الدار، أو يرمز فيه الخراب والوحشة الى العلاقات المنتهية والحب المفقود)) (14). فعمر بن أبي ربيعة لم يول الأطلال نفس القدر من الاهتمام الذي أولاه لها من سبقه من الشعراء، إلا أنه لم يغفل ذكرها تماماً، إذ كان يرى فيها وسيلة لاستحضار ذكريات الأحبة . لذلك نراه يشير إلى الأطلال أو المنازل في بيت أو بيتين، ثم ينتقل سريعاً الى موضوعه الأساس في الغزل (15) فنجدته يستوقف صاحبه على الطلل ، ويعرض لما نزل به ، في قوله: (البسيط) (16)

يا صاحِبِي قِفَا نَسْتَخِيرِ الدارِ	أَقَوْتُ فَهَاجَتِ لَنَا بِالْعَنَفِ اذْكَارِ
تَبَدَّلَ الرَّبْعُ مِمَّنْ كَانَ يَسْكُنُهُ	أَدَمَ الظِّبَاءِ بِهِ يَمْشِينَ أَسْطَارِ
وَقَدْ أَرَى مَرَّةً سَرِيباً بِهِ حَسَنًا	مِثْلَ الْجَاذِرِ أَثْيَاباً وَأَبْكَارِ

فالشاعر وأن وقف على الاطلال وقفه استرجاعية تستحضر الماضي، إذ استعمل الافعال الدالة على التبدل والغياب مثل (أقوت) و(تبدل الربع) فهذه الافعال تدل على إن الزمن قد مرّ ، وخلف وراءه أطلالاً تنثير الشجن ، فيربط بذلك بين زمن الحضور (الماضي) بزمن الوقوف (الحاضر) في لحظة وجدانية أنية يغمرها الحنين ، فهو لم يطيل في الوقوف على هذه الاطلال، بل يلم بموقع المنزل الدائر، ويعرض لما نزل به، ويصف ما تغير منه ، ثم ينتقل الى الموضوع الرئيس وهو الغزل .

خرج عمر بن ابي ربيعة بشعر الوقوف على الأطلال من أجواء الحزن والالين إلى أجواء الفرح والسرور، فلم يظهر في شعره ذاك الحنين المؤلم ولا بكاء المحرومين، بل تملأه مشاعر البهجة والطرب واللذة. وفي معظم قصائده، ينتقل بين الامكنة والأزمنة وعندما يذكر إحدى معشوقاته، فإنه يستحضرها من خلال المكان الذي جمعهما ، فيغدوا المكان رمزاً للوصال لا للفقد (17) ، فنجدته في مغامرة من مغامراته يجمع بين المكان والزمان، إذ يقول: (الطويل) (18)

وَلَيْلَةَ ذِي دَوْرَانَ جَشَمْتَنِي السُّرَى	وَقَدْ يَجْشَمُ الْهَوْلَ الْمُحِبُّ الْمُعْرِزُ
فَبِتُّ رَقِيباً لِلرِّفَاقِ عَلَى شَفَا	أُحَاذِرُ مِنْهُمْ مَنْ يَطُوفُ وَأَنْظُرُ
إِلَيْهِمْ مَتَى يَسْتَمِكُنُ النَّوْمُ مِنْهُمْ	وَلِي مَجْلِسٌ لَوْلَا اللَّبَانَةُ أَوْ عَرُ
وَبَاتَتْ قُلُوصِي بِالْعَرَاءِ وَرَحْلُهَا	لِطَارِقٍ لَيْلٍ أَوْ لِمَنْ جَاءَ مُعَوِّزُ

وَبِتُّ أَنَاجِي النَّفْسَ أَيْنَ خَبَاوُهَا وَكَيْفَ لِمَا آتَى مِنَ الْأَمْرِ مَصْدَرُ
فَدَلَّ عَلَيْهَا الْقَلْبُ رِيًّا عَرَفْتُهَا لَهَا وَهَوَى النَّفْسِ الَّذِي كَادَ يَظْهَرُ

ربط الشاعر بين المكان والزمان في مغامرته العاطفية ربطاً شعورياً عميقاً، فجعل من المكان الوعر تعبيراً عن الحب والمكابدة في اللقاء، ومن الليل الستر والمجازفة، فتفاعل الزمان والمكان معاً ليحملاً البعد العاطفي والمخاطرة النفسية التي عاشها العاشق، فيصبح الزمان مسرحاً للهوى، والمكان ميداناً للمخاطرة، فالشاعر يربط الحاضر بالماضي بأسلوب وجداني غير مباشر، فجعل من تجربته العاطفية الحالية استمراراً لذكريات حب مضى أو استحضر الماضي عبر إحساس القلب ومعرفته المسبقة بالمحبوبة، مما أعطى للمغامرة الحاضرة عمقاً شعورياً وزمناً.

وعلى الرغم من وقوف عمر بن أبي ربيعة على الأطلال، فإنه عاش وسط مجتمعه المتحضر المترف اللاهي، فأقبل على اللهو والطرب وقد رسم صورة حضرية جذابة للفتاة التي تذهب معه خارج المدينة، ويقضي معها الوقت في الطرب واللهو (19). من ذلك قوله: (الطويل) (20)

قامت تهادي وأترابٌ لها معها هوناً تدافع سيل الزَّلْ إذ مارا
يَمَّمْنَ مورقة الأفنان دانية وفي الخلاء فما يؤنس ديارا
قالت لو أن أبا الخطاب وافقنا فنلهو اليوم أو تنشدن أشعارا

فالشاعر يخرج عن الصورة التقليدية للأطلال والوقوف عليها، فراح يرسم صورة حداثثة للمرأة في بيئة طبيعة مفتوحة، وزمن يسمح بالتواصل الإنساني والتقاضي.

فالمرأة المتحررة تعرف قيمة الشعر واللهو، وتشارك الرجل في الثقافة لا فقط الغزل، والمكان أصبح مسرحاً لهذا الارتقاء الحضاري في العلامة بين الرجل والمرأة، فالشاعر يربط بين الزمن الماضي والحاضر شعرياً، فيعيد إحياء الزمن الماضي في سياق حديث دون أن يقطعه عن واقعه الحي.

يتبين مما تقدم إن المكان في شعر قيس بن ذريح وكثير عزة يرتبط بالزمن ارتباطاً نفسياً عميقاً، إذ يتحول إلى مثير نفسي يستحضر المشاعر ويكتف التجربة الوجدانية، ومن خلال هذا الارتباط، يتمكن الشاعران من جمع أكثر من زمن في لحظة واحدة، فيمثل المكان عندهما حضوراً وغياباً في آن معاً. فالديار التي كانت نابضة بالحياة ومأهولة بالأحبة، أصبحت اليوم موحشة وخالية، مما يكشف عن أزمة داخلية تنشأ من هذا التحول. ويولد ذلك شعوراً بالخوف والقلق، ينبع من البيئة المحيطة، بما تحمله من حنين إلى الماضي، ومعاناة في الحاضر، وتوجس مما قد يأتي به المستقبل.

أما عمر بن أبي ربيعة، فإن المكان في شعره يمثل موطن الحبيبة، ولأنه لم يقتصر في غزله على امرأة واحدة، فقد تنوعت عنده الأمكنة وتعددت الأزمنة.

فهو يتنقل بين المواقع المختلفة، مستمتعاً باللهو مع خليلاته، ولن يكن يشغل نفسه بوصف الأطلال أو التفنن في تصويرها، بل يمر بها مروراً سريعاً ليصل إلى الحديث عن المرأة.

لقد مثل الطفل عند شعراء الغزل العذري رمزاً لإحياء المشاعر الإنسانية، وعلى وجه الخصوص عاطفة الحب ، إذ كانوا يرونه وسيلة لتأجيج تلك العاطفة وبعثها من جديد . ولهذا كثيراً ما وقفوا عند الأطلال يتأملونها ، حيث يعكس هذا الوقوف لحظة حزينة نابعة من الإحساس الجماعي بالحرمان من المكان ، ومن التوق الدائم الى لحظة استقرار ومقام دائم، يتمكن فيه الشاعر من بناء بيت يحتضن ذكرياته ويسترجع فيه ملاعب صباه. (21)

وكثيراً ما وقف هؤلاء الشعراء عند ديار الحبيبة يذرفون الدموع ويستدرّون البكاء ، فهذا مجنون ليلى يقف على أطلال المحبوبة بعد مضي عشرين سنة ، مستعرضاً ما خلفته تلك الوقفة من أثر عميق على نفسه ، إذ يقول : (الطويل) (22)

وَقَفْتُ لِلَّيْلِ بَعْدَ عَشْرِينَ حِجَّةً	بِمَنْزِلَةٍ فَأَنْهَلْتُ الْعَيْنُ تَدْمَعُ
فَأَمْرَضَ قَلْبِي حُبُّهَا وَعَذَابُهَا	وَمَا لِلْعَدَى مِنْ صَبَوَةٍ كَيْفَ أَصْنَعُ
وَأَتَّبَعُ لَيْلَى حَيْثُ سَارَتْ وَوَدَّعْتُ	وَمَا النَّاسُ إِلَّا أَلْفٌ وَمُودَعُ
كَأَنَّ زِمَانًا فِي الْفُؤَادِ مُعَلَّقًا	تَقُودُ بِهِ حَيْثُ اسْتَمَرَّتْ فَأَتَّبِعُ
أَبِيتُ بِرُوحَاتِ الطَّرِيقِ كَأَنِّي	أَخُو جَنَّةٍ أَوْصَالُهُ تَنْقَطِعُ

رسم الشاعر لوحة نفسية تربط بين المكان والزمان، ويمتزج فيها الماضي بالحاضر بطريقة شعورية عميقة، فالشاعر يقف عند منزل ليلى بعد مرور عشرين سنة، وهذا المزج بين مكان ثابت (المنزل) وزمان متغير (مرور الزمن) ، فالمكان يصبح مستودعاً للزمن العاطفي ، أي أن الشعور لن يتغير رغم مرور عشرين سنة ، فالمكان هو الشرارة التي أعادت كل الذكريات، أما الزمان فهو السلك الذي مازال يشد قلبه نحو الماضي السعيد، فالماضي والحاضر تداخلا في وجدانه، بحيث صار يعيش الحاضر بألم الذكرى القديمة ، وكأن الزمن يتحرك منذ رحيلها ، فالحاضر عنده ليس منفصلاً عن الماضي، بل هو استمرار له في صورة ألم دائم ، وسير خلف ليلى في كل زمان ومكان.

ويتذكر مجنون ليلى ديار محبوبته في لحظات عذابه واشتداد مرضه، فيحن إليها ويدعو لها بالسقيا، وكأنها ما زالت تنبض بالحياة رغم ما يعيشه من ألم ووهن ، إذ يقول (الطويل) (23)

سَقَى اللَّهُ أَطْلَالَ بِنَاحِيَةِ الْحِمَى	وَإِنْ كُنَّ قَدْ أَبْدَيْنَ لِلنَّاسِ مَا بِيَا
مَنَازِلُ لَوْ مَرَّتْ عَلَيْهَا جَنَازَتِي	لَقَالَ الصَّدَى يَا حَامِلِيْ إِنْزِلَا بِيَا
فَأَشْهَدُ بِالرَّحْمَنِ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا	وَمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ فَهُوَ دَعَا لِيَا
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَقْوَامًا يَقُولُونَ إِنَّنَا	وَجَدْنَا الْهَوَى فِي النَّأْيِ لِلصَّبِّ شَافِيَا
فَمَا بَالُ قَلْبِي هَذِهِ الشَّوْقُ وَالْهَوَى	وَأَنْضَجَ حَرُّ الْبَيْنِ مِنِّي فُؤَادِيَا

اعتمد الشاعر في هذه الأبيات على تشكيل رؤية وجدانية تنبع من عمق التجربة العاطفية، ويتجلى ذلك من خلال توظيفه لثنائية الماضي والحاضر، وارتباطه الوثيق بالمكان بوصفه ذاكرة عاطفية، لا مجرد حيز جغرافي، فهو يستدعي الأطلال بوصفها رمزاً للزمن الماضي العاطفي إذ يستفتح بالدعاء لها (سقى الله)، في تحية وجدانية لمكان لن يعد كما كان، لكنه ما يزال يحتفظ بقيمته الشعورية، فالشاعر يعيش أسره الزمني داخل ذاكرة المكان، إذ لا انفصال بين ما مضى وما هو كائن، فالزمن الماضي ما يزال يسكن وجدانه، والمكان يظل الشاهد الأبدي على تجربة حب لم تتطفئ. وقد نجح الشاعر في صياغة شعرية مزدوجة، تتداخل فيها أنساق الزمان والمكان، ليؤسس لرؤية وجدانية لا تعرف الانفصال بين الإنسان والمكان والزمان.

وهذا المعنى نجده يظهر جلياً في شعر جميل بثينة، حينما وقف على ديار محبوبته التي أمضى فيها جزءاً من حياته، فاستولى عليه الحزن لما آلت إليه من خراب، فيتمنى عودة تلك الايام الماضية، وأخذ يدعو لتلك الديار بالسقيا والخصب، يقول: (الطويل) (24)

أَعَانِدَةُ يَا بَثْنَ أَيَّامُنَا الْأَلْسَى	بَذِي الظَّلْمَ أَمْ لَا مَالَهُن رَجوعُ
سَقَى مَنْزِلِينَا يَا بَثْنِ بِحَاجِرٍ	عَلَى الْهَجْرِ مَنَا صَيْفٌ وَرَبِيعُ
وَدُورِكَ يَا لَيْلَى وَإِنْ كُنَّ بَعْدُنَا	بَلِينُ بَلَى لَمْ تَبْلُهُنَّ رَبِوعُ

الشاعر خرج من الزمن الحاضر الى الزمن الماضي عبر الحنين والتذكر، إذ يشير الى ايام مضت كانت مليئة بالسعادة والحب، عبر سؤال استنكاري يسأل بحسرة إن كانت ستعود ((أم لا، ما لهن رجوع))، وهنا يدرك ان تلك الايام لا رجعه لها.

وفي هذه الانتقال، يبتعد الشاعر عن الزمن الحاضر المؤلم الذي فيه الفقد والهجر نحو الزمن الماضي الجميل، ليحتمي به شعورياً من قسوة الواقع، وما يلاحظ على ابیات الشاعر انه كان يعتز بالمكان والزمن الماضي من خلال تمجيده للديار وطلب السقيا لها، وكأنه يدعو بالبركة لمنزل الحب القديم، ثم يستحضر مشاعره القديمة التي مازالت حية في وجدانه، رغم مرور الزمن.

إن وقوف جميل بثينة على الديار القديمة يوقظ في نفسه مشاعر الحزن، ويعيد إليه ذكريات صباه وشبابه، فالمكان بالنسبة له ليس مجرد موضع، بل هو موطن الحبيبة ومسرح الذكريات، يثير فيه الشوق ويبعث الحنين إلى أيام مضت عاشها بالقرب من محبوبته (25)، فهو يقول: (الكامل) (26)

إِنَّ الْمَنَازِلَ هَيَّجَتْ أَطْرَابِي	وَاسْتَعْجَمَتْ آيَاتُهَا بِجَوَابِي
قَفَرًا تَلَوْتُ بِذِي اللَّجِينِ كَأَنَّهَا	أَنْضَاءُ رَسْمٍ أَوْ سَطُورُ كِتَابٍ
لَمَّا وَقَفْتُ بِهَا الْقُلُوصَ تَبَادَرَتْ	مَنْيَ الدُّمُوعُ لِفُرْقَةِ الْأَحْبَابِ
وَذَكَرْتُ عَصْرًا يَا بُثَيْنَةَ شَاقِنِي	وَذَكَرْتُ أَيَّامِي وَشَرَحَ شَبَابِي

في هذه الأبيات، تتجلى العلاقة العميقة بين الشاعر والمكان من خلال الحنين الصادق إلى أحبته وشبابه ، والتأثر العاطفي عند مروره بالمنازل التي كانت تسكنها الحبيبة، مما يبين عمق العلاقة بين الشاعر والمكان ، فعند رؤيته للديار أثارت احزانه وأشجانه، مما يدل على ارتباط وجداني قوي بالمكان لأنه مستودع الذكريات فتحول المكان إلى رمز صامت يحمل حكايات الحب والفراق، كما تحمل سطور الكتاب المعاني ، مما يعمق العلاقة بينه وبين المكان كذلك ربط بين المكان والزمان، فهو حين وقف في المكان، لم يتذكر فقط الأحبة ، بل ((ذكرت عصراً يا بئين شاقني و ذكرت أيامي وشرح شبابي)) ، فهو ربط بين المكان والمرحلة الزمنية التي قضاها فيه - زمن الشباب والحب ، وهو زمن لا ينسى، فالمكان أصبح بمثابة بوابة زمنية أعادت إليه أيامه الماضية، بما فيها من حب وفتوة ، وكأن الزمان مطمور في تراب المكان، لا يظهر إلا عندما يعود إليه ، لأن المكان ((يرفض أية تصورات لا تربطه بالحركة - الزمن))⁽²⁷⁾.

وفي موضع آخر يتدرج الشاعر بوصف المكان الذي ولد حالة من الحزن والأسى فيبدو المكان موحشاً في نظره وقد انتقت منه معالم الجمال، أن احساس الشاعر بالمكان مرتبط لديه باحساسه بأحبته، ومن هنا ندرك عمق العلاقة بينه وبين تلك الأمكنة التي مثلت له حبيبته، من ذلك قوله (الطويل) ⁽²⁸⁾

عفا برِّدٍ من أم عمرو فلفلف	فأدما من هـا فالصرائم مألف
وعهدي بها إذ ذاك والشمْلُ جامع	ليـالي جملٌ بالمودة تسعف
أمن منزل قُفرٍ تعفَّت رسومُه	شمـال تغاديه ونكباء حرجف
فأصبح قفراً بعدما كان حقبةً	وجمل المنى تشتتْ به وتصيف
ففرقنا صرفاً من الدهر لم يكن	له دون تفريق من الحي مصرف

ربط الشاعر بين المكان والزمان حين جعل المكان شاهداً على زمن المحبة ، فذكر المنازل التي كانت تسكنها أم عمر و قد بليت وتلاشت، وهذا التلاشي زمني (مرور الزمن) ، ومكاني (تحول المكان إلى خراب) ، فذكر المواضع التي جمعتها بحبيبته حين كان (الشمْلُ جامعاً) ، و(ليالي جملٌ بالمودة تسعف)، يشير إلى الزمن الماضي الذي كان مليئاً بالمحبة، وهو مرتبط بمكان معين كانا يجتمعان فيه ((فأصبح قفراً بعد ما كان حقبة)) يظهر التحول الزمني : من مكان مليء بالحياة والمنى إلى ارض قفراء مهجورة ، فالشاعر يهرب من الزمن الحاضر المؤلم إلى الزمن الماضي الجميل بحثاً عن العزاء، فالماضي، رغم أنه انتهى ، ما يزال يمدّه بومضة دفء في ظلمة الحاضر ، استعمل في ذلك أسلوباً قائماً على المفارقة الزمنية وصوراً شعرية مثل تشخيص الليالي، وتحول المكان من عام إلى خراب، ليجسد بذلك عمق الحنين وقسوة الفقد .

فلم يكن المكان عند جميل بثينة عنصراً ثانوياً ، بل كان جزءاً من تجربته الشعورية، فهو الحاضر الذي يختزل لحظات حبه بكل ما يحمله من أحداث وانفعالات ، لذا يغدوا المكان رمزاً ثقافياً، يستحضره الشاعر ليستلهم منه تفاصيل الذكريات ويسترجع من خلاله ما اختزنه الذاكرة من صور الماضي، فعلاقته بالمكان تقوم على التأمل والحنين ، لأنه لا يستطيع ان يهجر موطناً ارتبط بوجدانه وحمل له معاني بالغة الأثر ⁽²⁹⁾، ولذا تراه يخاطب بقايا الربع الذي محته الأيام بعد أن غابت عنه محبوبته التي كانت تبث فيه روح الحياة، وتمنحه معنى الحضور الإنساني والدفء العاطفي ، من ذلك قوله: (الطويل) ⁽³⁰⁾

أَلَا أَيُّهَا الرِّبْعُ الَّذِي غَيَّرَ الْبُلَى
عَفَا وَخَلَا مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ لَا يَخْلُو
تَذَابُّ رِيحِ الْمِسْكِ فِيهِ وَإِنَّمَا
بِهِ الْمِسْكُ إِنْ مَرَّتْ بِهِ ذَيْلُهَا جُمْلُ
وَمَا مَاءُ مُزْنٍ مِنْ جِبَالٍ مَنِيْعَةٍ
وَلَا مَا أَكُنْتُ فِي مَعَادِنِهَا النَّحْلُ

فالشاعر يخاطب المكان الذي تغير بفعل الزمن ، فقد كان عامراً بالحياة (لا يخلو) ، ثم خلا واندثر مما يوحي بالحزن والحنين الى الزمن الماضي الجميل، فالمكان لم يعد كما كان تماماً كما أن الزمان تغير، فالشاعر قدم رؤية شعرية تمزج بين: الزمان بتغير حال المكان عبر العصور ، والمكان كرمز لحضور الحبيبة وذكرها ، فالمكان يكتسب قيمته وجماله من وجود الحبيبة فيه أو مرورها به ، والحبيبة كمصدر للجمال والرائحة والقداسة، فالمكان هو وعاء الذكرى، والزمان هو شاهد التحول والفقدان، والحبيبة هي المصدر الذي يمنح المكان روحه وسحره ، ومن المفردات المكانية التي اهتم بها شعراء الغزل العذري ((الجبيل)) ، إذ رأوا فيه ملاذاً آمناً ومصدراً للماء العذب ، يخفف عنهم وطأة الحزن ويخفف شعورهم بالغربة. فكان الجبل لهم فضاءً للتأمل والعزلة، ينفردون فيه بأنفسهم ، ويجدون فيه سبيلاً للترويح عن قلوبهم المثقلة بالحب والحنين (31) : فنرى جميل بثينة يربط بين الجبل المكان وحبيبته بثينة ربطاً وثيقاً ، إذ يعبر عن أن قرب الجبل منه يوازي في معناه قرب بثينة من قلبه وروحه، إذ يقول. (32)

وَقَالُوا : يَا جَمِيلُ أَتَى أَخُوها
فَقُلْتُ أَتَى الْحَبِيبُ أَخُو الْحَبِيبِ
أَحِبُّكَ أَنْ نَزَلْتَ جِبَالَ حِسْمِي
وَأَنْ نَاسَبْتَ بَثْنَةً مِنْ قَرِيبِ

جعل الشاعر من المكان انعكاساً لمشاعره، ف((جبال حسمي)) ليست مجرد تضاريس ، بل تتلون بالحب وتصير دليلاً على اتساع قلبه للحب في أي مكان ما دامت بثينة هي الرابط ، مما يمنح المكان طابعاً عاطفياً ملؤه الأُنس، والقرب ، والأمان فالجبل في العادة رمزاً للصلابة والانفصال ، لكنه في هذا السياق أصبح رمزاً للألفة والأمان ، لأن بثينة فيه، فهو ليس وعراً بل حنوناً مألوفاً .

أما مجنون ليلي ، فكان إذا ضاقت به النفس فزع الى جبل الثوباد ، يشكو ويبيكي ، متخذاً منه أنيساً وشاهداً على علاقته العاطفية العميقة بمكان المحبوبة، ويخاطبه كأنه كان حي يشاركه اسراره وهمومه، قائلاً : (الطويل) (33)

وَأَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَادِ حِينَ رَأَيْتُهُ
وَهَلَّلَ لِلرَّحْمَنِ حِينَ رَأَيْتُهُ
وَأَذْرَيْتُ دَمْعَ الْعَيْنِ لَمَّا رَأَيْتُهُ
وَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ وَدَعَانِي
فَقُلْتُ لَهُ أَيْسَنَ الَّذِينَ عَهْدَتْهُمْ
حَوَالَيْكَ فِي خُصْبٍ وَطِيبِ زَمَانِ
فَقَالَ مَضَوْا وَاسْتَوْدَعُونِي بِلَادَهُمْ
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْقَى مَعَ الْحَدَثَانِ
وَإِنِّي لِأَبْكِي الْيَوْمَ مِنْ حَذْرِي غَدًا
فِرَاقُكَ وَالْحَيَانُ مُؤْتَلِفَانِ
سَجَالًا وَهَتَانًا وَوَبِلًا وَدِيمَةً
وَسَخَاً وَتَسْجَامًا إِلَى هَمَلَانِ

يتفاعل المكان من خلال بنيته الشعرية مع نفسية الشاعر، ليظهر مشاعر الحزن والقلق التي تغمره، إذ يستحضر الماضي من خلال وصف أحوال الناس الذين عاشوا حول الجبل، ملخصاً حياتهم بالخصب وطيب العيش، مما يضيف على الزمن الماضي بعداً جمالياً يرتبط بمكان نابض بالحياة والازدهار. ويتحول الجبل في هذه الابيات الى صدى يعكس هواجس الشاعر ومشاعره المتوترة، يظهر هذا من خلال الحوار الذي يقيمها الشاعر مع الجبل، متسائلاً عن سكان المكان. وهنا يعبر الحوار عن حالته النفسية، ويكشف رؤيته للوجود، إذ يبدأ الشاعر حديثه بالعودة الى الماضي ثم ينتقل الى الزمن الحاضر، مخاطباً الجبل بحال أهله الذين غادروا ورحلوا عن ديارهم، مانحاً لحالة الغياب بعداً وجودياً تجسده عبارته: ((ومن ذا الذي يبقى مع الحدثان))، في اشارة الى فعل الزمن وتقلبته، أما البكاء، فيأتي ضمن سياق متزامن مع الحدث، إذ يجعله الشاعر مدخلاً للعبور من الحاضر نحو المستقبل، فدموعه اليوم نابعة من مخاوفه مما قد يحمله الغد من فراق ولوعة وبكاء متواصل، يحمل المستقبل دلالة نفسية واضحة تتمثل في القلق والاضطراب.

أما شعراء الغزل الصريح فقد ((اختفى من هذا الغزل، أو كاد، بكاء الاطلال وذكر آثار الديار، وخاصة عند شعراء مكة و المدينة، إذ لم تكن حياة الشعراء في البلدتين المذكورتين تعتمد على الارتحال من موضع الى موضع في البادية، كما كان الشأن عند الجاهلين، بل كانت تعتمد على الاستقرار والإقامة، فلم يعد الشاعر يحس حاجه حقيقية الى التغني بالرسوم والأطلال الدائرة وبأحبائه اللائي طال عهد لقائه بهن في أيام الصبا والشباب إذ أصبح يلقي من شغف قلبه حباً ويسمر معهن من حين الى حين))⁽³⁴⁾، وغلب على غزل المدينتين الطابع المادي الصريح بحكم ما أتيح للمجتمع فيها من ترف ومن حرية، فشاع الغزل بالحسنات المدنية في أغلب قصائد هؤلاء الشعراء، وبالتالي لن تكن للأطلال أهمية كبيرة في بناء الصورة الشعرية، فالحبيبة ترى في المجالس والقصور والاسواق، لا في البوادي، فهذه الصورة الجديدة للمرأة الحضرية جعلت من شعراء الغزل الصريح يعرضون عن ذكر الأطلال كمقدمة تقليدية لقصائدهم، ويتجهون الى وصف القصور التي تسكنها محبوباتهم، ويصورون الإهوال.

التي تعترضهم للوصول لقصور المحبوبات⁽³⁵⁾ فهذا العرجي يتحدث عن استعداده لتحمل المشاق والصعاب في سبيل الوصول الى النساء الجميلات، ويخاطب المكان الذي يحتضن هذه المحبوبة (القصر) الفاخر المحاط بالحدائق واصفاً موقعه بين القصور الأخرى، وكأنه يعلوها أو يتميز عنها، يقول: (الخفيف)⁽³⁶⁾:

أَجْشُمُ الْهُولَ فِي الْكَعَابِ وَقَدَمًا	جَشْمُ الْهُولِ ذُو الْهُوَى فِي الْكَعَابِ
أَيُّهَا الْقَصْرُ ذُو الْأَوَاسِيِّ وَالْبَسَمِ	تَانِ بَيْنَ الْقُصُورِ فَوْقَ الظَّرَابِ
خَصَّكَ اللَّهُ بِالْعَمَارَةِ مِنْهُ	وَوَقَّكَ الْمَلِكُ وَشَكَ الْخَرَابِ
لَمْ أَحِلْ عَنْكَ مَا حَبِيبْتُ بُوْدِي	أَبْدَأُ أَوْ يَحْـوُلُ لَوْنُ الْغَرَابِ
دُونَهَا الْحَارِسُ الشَّفِيقُ عَلَيْهَا	قَدْ تَوَلَّى مَفْـاتِحَ الْأَبْوَابِ
وَتَرَقِيتُ بِالْحَبَالِ إِلَيْهَا	بَعْدَ هَدْيٍ وَغَفْلَةٍ الْبُؤَابِ
فَجَزَّتْنِي بِمَا عَمَلْتُ ثَوَابًا	حَسَنًا كُنْتُ أَهْلَ ذَاكَ الثَّوَابِ

ربط الشاعر بين المكان (القصر رمز المحبوبة) فهو رمز للفخامة والانوثة والجمال، والبستان الذي يضفي بعداً حسيّاً بالحياة والخصوبة، فهذه البيئة المكانية تضيف جمالية حسية، وتعمق من لذة اللقاء العاطفي، والزمان (الليل ، أو لحظة الغفلة والهدوء)، حيث يغيب الرقيب وتتاح الفرصة للتسلل واللقاء، مما يضفي اثارة ومتعة داخلية في تجربة الشاعر، والحببية التي يكابد من اجل لقائها ، ليوحى بأن اللقاء العاطفي لا يحدث إلا عندما تتوافق الظروف الثلاثة : مكانها الخاص، وزمن اللقاء الذي يسمح بالوصول، واستعدادها للوصل ، فالشاعر يربط بين الزمن الماضي والحاضر والمستقبل، فيجعل من الزمن عنصراً مندمجاً في التجربة العاطفية، حيث لا فاصل بين ماضٍ مضى وحاضر مستمر ومستقبل منعم بالأمل .

أما الأحوص، فأشار الى الترف والحياة المشرفة التي تعيشها المحبوبة، وكثرة تنقلها بين الأماكن الجميلة والمشهورة ، إذ يقول: (الخفيف) (37)

ولهـا مـربع بـبرقـة خـاخ ومصـيـفٌ بالقـصرِ قـصرِ قـباءِ

قَلْبْتُ لِي ظَهْرَ المَجْنِّ فَأَمْسَتْ قَدْ أَطَاعَتْ مَقَالَـةَ الأَعْدَاءِ

فالشاعر يربط بين المكان والزمان والحببية بطريقة تعكس تحول العلاقة العاطفية، فالمكان ((برقة خاخ، وقصر قباء)) يعكس حالة الترف والرفاهية التي كانت تعيشها المرأة ، والزمان (المربع والمصيف) يرمز الى تغير الفصول ، وهو رمز ضمني لتقلب المشاعر ، أما الحببية، فقد كانت قريبة ثم ((قلبت له ظهر المجن))، فابتعدت وأطاعت كلام الأعداء، فالمكان والزمان ليسا مجرد خلفية، بل يعكسان تحول الحببية وتغيرها ، مما عمق ألم الشاعر وعبر عن خيبته العاطفية .

وهذا المعنى نجده عند عمر بن أبي ربيعة حينما وصف محبوبته ذات الجمال والدلال، فهي لها تأثير قوي على من حولها ، تعيش في أماكن شريفة ، وقد أوقعته في حب عميق جعله يؤخر سفره ويتعلق بها بشدة، قال: (الكامل) (38)

وترى لهـا دلاً إذا نطقت تركت بناتِ فؤاده صُغرا

كتساقط الرُّطب الجنّي من الدقوان لا كثرأ ولا نذرا

بالخيف منزلها ومسكنها وتحلُّ مَكَّة إن شئتَ قصرا

من أجلها حُبست ركايبنا شهراً تجرّم بعده شهرا

عقد الشاعر علاقة وثيقة بين المكان والحببية من خلال جعل المكان انعكاساً لمكانتها ورفعته ، وربط وجودها بالمكان وسموه، فمكان الإقامة (الخيف -مكة) دليلاً على الترف والكرامة، وهذا يعكس علو شأنها ورفع منزلها ، فصار المكان مرتبطاً بعاطفته ومحبتة، وجعل من جغرافيته جغرافياً للعشق، فتتحرك ابیات الشاعر بين ثنائية الماضي / الحاضر، وقد تجسدت صورة الماضي عبر الحديث عن الإقامة في أماكن معينة، وتعطيل السفر بسببها ، وهو نوع من الذكرى العالقة التي تسترجع الآن، ما يدمج الحاضر بالماضي، أما الحاضر فقد عبر فيه عن وصف الجمال في لحظة الحديث، وتأثرها المباشر على مشاعر الرجال، فالشاعر تغرق ابياته في لحظة الحضور الأنّي للحببية .

أما عبيد الله بن قيس الرقيات، فقد وصف فتيات جميلات مترفات، يتنزين بأفخر انواع العطور واللباس، ويتحلين بالرقّة والدلال، وهن من الطبقات الراقية في المجتمع ، فهو لا يصف المكان بشكل مباشر، وإنما يصف الجو المحيط بالمحوبة وظروف حياتها الراقية والمترفة ، من ذلك قوله: (مجزوء الكامل) (39)

ووجدت مسكاً خالصاً	قد ذرّ فوق عيونهنّ
وإذا تضحّخ بالعبيـ	ر الورد زان وجوههنّ
يخفين في المشي القريـ	ب إذا يزرن صديقهنّ
وبنات كسرى في الحريـ	ر عواملّ يخذ منهنّ
متعطفات بالبرود	على البغال وفرهنّ

فالشاعر ربط بين المكان والزمان من خلال تصوير الحياة المتحركة في بيئة مترفة، فهو لا يتحدث عن مكان خلّته الأحبة أو مضى عليه الزمن، بل يصور مشهداً آنياً متحركاً : (النساء يمشين ، يتزين، يُخدمن، يركبن البغال) وهذا يدل على ان المكان ليس جامداً، بل حي متفاعل، يتجدد مع الزمن الحاضر، فالزمان عنده ليس ماضوياً كما في الغزل العذري، بل هو زمن حاضر ينبض بالحياة والأنوثة والدلال، فالحريـ، والعبيـ، والبرود ، والخدمة، توحى بزمن دائم الرفاه، وكأن الزمن هنا زمن رفاهية متكررة لا تنقطع ، فالمكان ما هو إلا امتداد لهذا الزمن المترف، الحي ، المليء بالجمال ، فالمكان والزمان مترابطان في استمرارية الترف والنعمه .

مما تقدّم تلحظ إنّ مجنون ليلى وجميل بثينة ربطوا المكان بالزمان ربطاً وجدانياً حزيناً ، لاستدعاء الماضي الجميل، فيربطا الديار والاطلال بزمن المحبة والوصال المنقضي، فالمشاعر المسيطرة عليهم ، هي الحنين، الحزن ، الوجد الأسى، فلم يكن المكان عندهم عنصراً ثانوياً ، بل كان جزءاً من تجربتهم الشعورية، فصار المكان عندهم يمثل رمزاً ثقافياً، يستلهمون منه تفاصيل ذكرياتهم ، ويسترجعون من خلاله ما اختزنه الذاكرة من صور الماضي الجميل فالمكان عندهم يكسب قيمته من وجود حبيباتهم فيه .

أما العرجي والاحوص وعمر بن ابي ربيعة، فقد ربطوا المكان بالزمان ربطاً حسيّاً مباشراً ، يظهر لذة الحاضرة والبهجة في تفاصيل الحب، فالمكان والزمان عندهم يتحدان ليعكسا مشهداً حياً للحب المادي، حيث تمضي المحبوبة وقتها في التجل ، والتباهي، والخدمة في القصور ، فهم وصفوا مكان التنعيم والوصال (القصور، المجالس ، المواكب) ، أما الزمان فهو الحاضر، لحظة راهنة مليئة بالبهجة، والجمال، والترف ، وهذا متأت من طبيعة عيشهم في الحواضر لذا فهم لن يصفوا الأطلال ، والديار التي خلفها الخراب مثل ما فعل الشعراء العذريون .

الخاتمة :

ومن كل ما تقدّم نخلص إلى أن المكان عند شعراء الغزل العذري ارتبط بالزمن الماضي، زمن الذكريات والسعادة ، إذ كان الشعراء العذريون يميلون الى تمجيد هذا الزمن، إذ وجد فيه الشعراء ملاذاً من حاضر يروونه قائماً موحشاً ، خلت فيه معاني السعادة لذلك كانوا يتجهون إلى الماضي ، يمجّدونه ويقدّسونه، ويستعيدون من خلاله صوراً جميلة خففت عنهم ما أصابهم من حزن وألم ، فجعلوا منه رمزاً لأوقات لم يبقَ منها سوى الذكرى .

كذلك لجأ شعراء الغزل العذري الى استنطاق الديار ، فجاء هذا الاستنطاق كأداة فاعلة في التعبير عن رؤيتهم لإشكالية الحياة من ولادة وفقدان، ومن سعادة ومعاناة، وقد التبتت الأمكنة في هذا الشعر مكانة خاصة وقدسية عالية، لأنها شكلت الفضاء الذي احتضن تجربة الشاعر العذري مع محبوبته، فاقتترنت قدسية المكان بقدسية الحبيبة ذاتها .

أما شعراء الغزل الصريح فالمكان عندهم مرتبط بالزمان ارتباطاً فنياً يعكس طبيعة التجربة العاطفية السريعة والمتحولة في بيئة حضرية ، فهم يتعاملون مع المكان بوصفه مسرحاً للقاءات الغرامية العابرة فهو لا يرتبط بذكريات مؤلمة أو حنين طويل، بل بلحظات لذة وجمال تحدث في زمن محدد ، وتنتهي بانتهاء الموقف .

فالمكان عندهم هو (القصر، السوق ، موسم الحج ، مجالس اللهو والطرب ، دار الحبيبة وغيرها من اماكن الوصال واللهو) ، أما الزمان فهو لحظة اللقاء بين الحبيين ، أو موسم معين ، فهم يعيشون الزمن الحاضر ويمهدون للمستقبل ، فالشاعر يصف لقاءه مع المحبوبة في مجالس اللهو أو في مكان معين، ويربط هذا اللقاء بوقت معين ، ما يجعل الزمان والمكان إطاراً للحظة عشقية مثيرة .

فشعراء الغزل الصريح لا يلتصقون بمكان واحد ، ولا يحنون الى دار أو أطلال ، بل ينتقلون من مكان إلى آخر حسب توافر النساء واللذات، والزمن عندهم ليس متطولاً ، بل آني، سريع، وممتع وهذا كله متانٍ من الطبيعة الاجتماعية التي كانوا جزءاً منها.

الهوامش :

- (1) ينظر: الاتجاه النفسي في نقد الشعر، د. عبد القادر فيدوح، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، ط1 ، 1992 ، ص202.
- (2) ينظر: الحنين الى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي ، محمد ابراهيم حور، دار نهضة مصر للطبع ، ط1، 1973 ، ص47.
- (3) ينظر: قراءة ثقافية في لغة الحوار عند العذريين ، عليمات - يوسف محمود ، المجلة العربية للعلوم الانسانية - الكويت، مج25 ، ع00 ، 2007 .
- (4) ديوان قيس بن ذريح ، ص : 106 .
- (5) ديوان قيس بن ذريح ، ص : 99 .
- (6) ينظر: الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي ، دار الارشاد للطباعة والنشر ، ط1، 1970 ، ص:152.
- (7) ديوان كثير عزة ، ص119.
- (8)88 ديوان كثير عزة ، ص : 237.
- (9) اصول علم النفس ، د. احمد عزت راجح ، دار القلم ، بيروت ، د.ت. ، ص: 561 .
- (10) ينظر الغزل في العصر الأموي، عفيف نايف حاطوم، دار صادر - بيروت ، لبنان، ط2 ، 2008م / ص:118.
- (11) ينظر: مواقف في الأدب الأموي ، د. عمر فاروق، دار القلم ، بيروت ، 1991 ، ص: 107.

- (12) ينظر: في الشعر الاسلامي والأموي ، عبد القادر القط ، ص: ٢٣٣ .
- (13) شعر الغزل في العصر الأموي دراسة في ثنائيات الشكل والمضمون ، د. هناء جواد، ص: 186.
- (14) في الشعر الاسلامي والأموي، عبد القادر القط ، ص : ٢١٨-٢١٩ .
- (15) ينظر: مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي ، د. حسين عطوان ، دار المعارف ، مصر ، 1970 ، ص: 178.
- (16) ديوان عمر بن ابي ربيعة ، ص: 140.
- (17) ينظر: مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي ، د. حسين عطوان، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٠ ، ص: ١٨٠ ، وينظر: شعر الوقوف على الاطلال من الجاهلية الى نهاية القرن الثالث ، الدكتور عزة حسين، دمشق ، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م، ص: 85.
- (18) ديوان عمر بن ابي ربيعة ، ص: ١٢٥.
- (19) ينظر: شعر الغزل في العصر الأموي دراسة في ثنائيات الشكل والمضمون ، ص : ١٨٥.
- (20) ديوان عمر بن ابي ربيعة ، ص : ١٤٠.
- (21) ينظر: الطبيعة في الشعر الجاهلي ، نوري حمودي القيسي، ص: ٢٥٣ - ٢٥٤.
- (22) ديوان مجنون ليلى ، ص : ٥٠.
- (23) ديوان مجنون ليلى ، ص : 42.
- (24) ديوان جميل بثينة، ص : 76.
- (25) ينظر: شعر الوقوف على الأطلال من الجاهلية الى نهاية القرن الثالث ، الدكتور غزة حسين ، دمشق، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م، ص : 79.
- (26) ديوان جميل بثينة ، ص : ٢١ .
- (27) إشكالية المكان في النص الأدبي ، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، م. ط. ، 1986 ، ص: 19.
- (28) ديوان جميل بثينة ، ص: ٨٠
- (29) ينظر: جماليات الأسلوب والتلقي ، موسى رابعة، أربد : مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية الازدن ، ط 1 ، ٢٠٠٠ ، ص: 64.
- (30) ديوان جميل بثينة ، ص: ١١٠.
- (31) ينظر : المديح، د. سامي الدهان، دار المعارف، مصر، ط 2 ، ١٩6٨ ، ص: 99.
- (32) شرح ديوان جميل بثينة، شرحه وكتبه هوامشه ، مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م ، ص : 12.
- (33) ديوان مجنون ليلى ، ص: ٦٤.
- (34) الشعر وطابعه الشعبية على مرّ العصور ، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية ، ١٩٧٧ م، ص: 53.
- (35) ينظر: الغزل في العصر الأموي ، عفيف نايف حاطوم، دار صادر ، بيروت ، ط 1 ، 1997 م ، ص: 115.
- (36) ديوان العرجي ، ص : ١٨٠.
- (37) ديوان الأحوص ، ص : 88.
- (38) ديوان عمر بن ابي ربيعة، ص : ١٦٨ .
- (39) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ، ص : ٦٧.

المصادر :

1. الاتجاه النفسي في نقد الشعر، د. عبد القادر فيدوح، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، ط 1 ، ١٩٩٢ .
2. إشكالية المكان في النص الأدبي ، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، م. ط. ، 1986
3. أصول علم النفس ، د. احمد عزت راجح ، دار القلم ، بيروت ، د. ت.
4. تاج العروس من جواهر القاموس ، محمّد مرتضى الحسيني الزبيدي ، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت ، ٢٠٠١ م.
5. جماليات الأسلوب والتلقي ، موسى رابعة، أربد : مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية الازدن ، ط 1 ، ٢٠٠٠ .
6. الحنين الى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي ، محمد ابراهيم حور، دار نهضة مصر للطبع ، ط 1 ، ١٩٧٣.
7. ديوان جميل بثينة، دار صادر بيروت للطباعة والنشر ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

8. ديوان عمر بن ابي ربيعة ، قدم له الدكتور فايز محمد ، الناشر دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الثانية ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
9. ديوان قيس بن ذريح (قيس لبنى) ، اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي ، دار المعرفة ، بيروت الطبعة الثانية ، ١٤٢٥ هـ - 2004 م .
10. ديوان كثير عزة ، قدم له وشرحه مجيد طراد ، الناشر دار الكتاب العربي، الطبعة الاولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.
11. ديوان مجنون ليلى ، ابو بكر الوابي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وولاده، 1939.
12. شرح ديوان جميل بثينة، شرحه وكتب هوامشه ، مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.
13. شعر الغزل في العصر الأموي دراسة في ثنائيات الشكل والمضمون ، الدكتورة هناء جواد العيساوي ، جامعة بابل ، دار الرضوان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ، ٢٠١٤ م .
14. شعر الوقوف على الأطلال من الجاهلية الى نهاية القرن الثالث ، الدكتور غزاة حسين ، دمشق، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.
15. شعر الوقوف على الاطلال من الجاهلية الى نهاية القرن الثالث ، الدكتور غزاة حسين، دمشق ، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.
16. الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور ، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية ، ١٩٧٧ م.
17. الطبيعة في الشعر الجاهلي ، نوري حمودي القيسي ، دار الإرشاد للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م.
18. الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي ، دار الارشاد للطباعة والنشر ، ط1، 1970.
19. الغزل في العصر الأموي، عفيف نايف حاطوم، دار صادر - بيروت ، لبنان، ط2 ، 2008م.
20. في الشعر الاسلامي والأموي ، عبد القادر القط .
21. قراءة ثقافية في لغة الحوار عند العذريين ، عليّات - يوسف محمود ، المجلة العربية للعلوم الانسانية - الكويت، مج25 ، ع00 ، 2007 .
22. لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، ط3 ، 1414 هـ.
23. المحيط في اللغة ، كافي الكفاة، صاحب ، اسماعيل بن عباد (326-385 هـ) ، تحقيق محمد حسين آل ياسين، الناشر ، عالم الكتب بيروت، الطبعة الاولى ، 1414 هـ - ١٩٩٤ م.
24. المديح، د. سامي الدهان، دار المعارف، مصر، ط2 ، ١٩6٨ .
25. معجم ما استعجم من اسماء البلدان والمواضع ، ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محن البكري الاندلسي (ت ٤٨٧ هـ) ، للناشر، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٣ هـ .
26. مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي ، د. حسين عطوان ، دار المعارف ، مصر ، 1970.
27. مواقف في الأدب الأموي ، د. عمر فاروق، دار القلم ، بيروت ، ١٩٩١ .